الحج

وأثره

وضع الأسلام نظام الحياة الفردية من القصد فى المعيشة والتحلي بمكارم الأخلاق حتى تقوم الجماعة على أمتن الأسس وأقواها من التضامن فى صالح الأعمال وتوحيد غايتها فى رضاء الله والتقرب إليه بعمل الخير وإسداء البر لأخيه . قال تعالى :

الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ٥ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ٥ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار (١)

فرض الله الصلاة ليتصل العبد بربه بالأقرار بعبوديته وليصل الأنسان أخاه الأنسان بالرحمة والعطف امتثالا لأمره كما فرض عليه الزكاة تطهيراً لماله وليذكرنا الفقراء من إخوانه وأبناء جنسه وإذا ما اشتد ساعد الجماعة وثبت على خير الأخلاق وأزكى مثل الفضيلة احتاجت إلى تعارف إخوانها من الجماعات الأخرى لتزداد أواصر الانسانية أحكاما فقال تعالى :

يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢)

وكما فرض الله تعالى صلاة الجماعة لتعارف أهل الحلة والقرى فقد فرض الحج ليتم التعارف بين أهل البلاد والدول والممالك . وبذلك يتم بناء الأنسانية وتبادل النافع بين أبنائها قال تعالى :

وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم . ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (٣)

---

(١) سورة الرعد (٢) سورة الحجرات (٣) سورة الحج

والحج فى اللغة القصد مرة بعد أخرى فقيل حج البيت لأن الناس يأتونه فى كل سنة فقال تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس[١] أى مرجعا يأتونه فى كل سنة ثم يرجعون إليه فلا يقضون منه وطرا أى لا يدعه الناس إذا أتوا إليه أن يعودوا إليه ثانية . وحج البيت فى الشرع قصده على ماهو فى اللغة إلا أنه قصد على صفة ما . فى وقت معين . اقترن به أفعال معينة .

وحج البيت الحرام (ومقره مكة) فريضة كفريضة الصلاة والصيام والزكاة قال الله عزوجل . (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)[٢]

أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت فصدعا بالأمر وبنيا الكعبة فى مكة ولما تم بناؤها أمر الله تعالى أن يعلم الناس بأنه بنى بيتا لعبادة الله تعالى وأن عليهم أن يقصدوه لنسك وطلب إبراهيم وإسماعيل من الله تعالى أن يريهما المناسك التى يتنسكانها .

والكعبة أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى فى حين أن بقية الشعوب والقبائل فى سائر أنحاء الأرض كانوا يبنون البيوت لعبادة الأصنام والتماثيل . قال تعالى :

إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين[٣] وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود[٤] .. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم[٥]

وقد ذكر الله تعالى الحج كله فى كتابه بمناسكه ومشاعره وأحكامه ووقت أدائه وما يحل فيه وما يحرم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما أجمل الله عز وجل فى كتابه من أمر الحج فوقت الوقوف لأهل الآفاق وبين عدد الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة وما يبدأ به من ذلك . وكيف يصنع فيه ووقت الوقوف بعرفة والمزدلفة والجمع بين الصلاتين فيها ووصفة رمى الجمار والنحر وما يجب فى ذلك كله . ومالا يجب قولا وعملا فى حجه الذى حج بالناس .

وفرائض الحج أربعة : النية . والطواف بالبيت . والسعى بين الصفا والمروة . والوقوف بعرفة[٦]

---

(١) سورة البقرة ١٢٥ (٢) سورة آل عمران ٩٧

(٣) سورة آل عمران ٩٦ (٤) سورة البقرة . (٥) سورة البقرة (٦) يراجع فى ذلك كتب الفقه

أثر الحج

إن ذهاب عشرات الآلاف من مسلمي العالم على اختلاف بلادهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم إلى مكة لأداء فريضة الحج له أثر بالغ فى تربية النفس وذلك باحتمال مشقة السفر ووعث الطريق فى سبيل تحقيق المبدأ وهذا رياضة الوجدان على إطاعة الرحمن .

اجتماع الألوف المؤلفة من مختلف الأجناس البشرية الأسلامية من بقاع الكرة الأرضية بين فقير مقل وغني كبير الثراء. الأبيض . والأسود . والأصفر . والأسمر . وجاهل وأمير ورفيع . وصغير ووضيع فى صعيد واحد بلباس واحد فى وقت واحد تنفيذاً لأمر الله الواحد . وطلباً لغفرانه ومرضاته من أكبر الأسباب فى تحقيق المساواة .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مايلبس المحرم (الحاج) قال . لايلبس المحرم القميص . ولا العمامة . ولا البرنس (كل ثوب رأسه منه) ولا السراويل ولا ثوبا مسه ورس (ثوب مصبوغ له لون أحمر يضرب إلى الصفرة) ولا زعفران ولا الخفين إلا ألا يجد نعلين فليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين : أخرجه الستة وهذا لفظ الشيخين وزاد البخارى ولا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لم يجد إزارا فليلبس سراويل . ومن لم يجد نعلين فليلبس خفين) أخرجه الخمسة .

وقد جمع الحج العوامل الأربعة التالية التى تعتبر أساسا لظواهر اجتماعية راقية . يشيد عليها بناء الجامعة الأسلامية وارتباطها الأنسانية :

١ ـ الاتصال بين أفراد الشعوب وهو أساس المجاملة والتعارف وإلى ماهنالك من درجات التفكه والتسلية .

٢ ـ التقليد أساس التطور الاقتصادى فى الصناعات والمعاملات الخ .

٣ ـ التساهل أساس تحرير العدالة وتطور القضاء .

٤ ـ التحالف والتعاون أساس النظامات السياسية والاقتصادية والدفاعية الحربية . ونشر السلام العام. قال الفيلسوف هربرت سبنسر الأنجليزى (متى وجدت العلاقة بين الناس كشابهو لاخلاقة

وأن تفاوتوا فى الثروة وقسموا طبقات) .

كان من الأعمال الكبرى لأمام المسلمين إقامة حجهم . وكان الحج معتبرا فى نظر الخلفاء الراشدين موسما عاما يجتمع فيه أمراء الجهات ليدلوا إلى الخليفة بما عندهم من الأحوال فى بلادهم . وليسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم . وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم . وقلما يتخلفون . وكان أكثرهم توليا لأمر الحج بنفسه عمر بن الخطاب فأنه حج سنيه كلها لم يتخلف فى واحدة منها . إلا أنه حصل خلاف فى السنة الأولى من حكمه فقيل أنه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف .

كان الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهرا عظيما . وفائدة كبرى فى تعارف المسلمين بعضهم ببعض . وكان الخلفاء يجيئهم به من الأخبار مالا يمكن أن يصل إليهم بوسائط الولاة (١) .

حج الأستاذ الحاج ناصر الدين دينه المستشرق الفرنسى والصور المشهور إلى بيت الله الحرام سنة ١٩٢٩ وألف فى ذلك كتابا يشمل جميع ذكرياته جمع فى مقدمة وسبعة فصول وخاتمة وملحق ذى فصلين فى أكثر من مائتى صفحة . قال المؤلف فى خاتمة كتابه .

لقد استرعت أنظارنا بصفة خاصة أثناء رحلتنا أمور ثلاثة على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة للمستقبل . وهى :

أولا ـ قوة الحياة الكامنة فى اللغة العربية .

ثانيا ـ قوة العقيدة الإسلامية .

ثالثا ـ إصرار أوروبا فى عداوتها للإسلام أصرارا ظاهرا .

ولنذكر باختصار رأيه فى هذه الأمور الثلاث .

أولا ـ قوة الحياة الكامنة فى اللغة العربية .

وهناك الألوف من الحجاج الأعاجم (غير العرب) الذين يبذلون على تعلم اللغة العربية بشغف زائد ليتسنى لهم قراءة القرآن واستيعاب معانيه . والكثيرون منهم يقدرون على التعبير بها من غير ما خطأ بالرغم من سقم نطقهم . ولقد تسنى لنا محادثة بعض الجاويين والهنود والفارسيين والخراسانيين . وأهالى البوسنه والأتراك والألبانيين . وأهل القوقاز والسنغال والسودان من غير أن تصادفنا صعوبة تذكر . . .

---

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين . للاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار ص ٤٩٨ .

ويجد الانسان فى دراسة تلك اللغة العجيبة ميزة خاصة بها . فانها من بين جميع اللغات القديمة . اللغة الوحيدة التى لاتزال حية الآن ولو عاد اليوم أحد معاصرى النبى صلى الله عليه وسلم لما وجد أية صعوبة فى التفاهم مع جميع الناطقين بالضاد على حين أنه لوعاد أحد معاصرى فيصر لما تأتى له إلا أن يتكلم مع بعض الأساتذة المدرسين ومع ذلك فمن الشكوك فيه أن ينسنى له أن يفهم كل الفهم كما أن أحد معاصرى فرنسو الأول لوعاد لوجد صعوبة تامة فى التخاطب مع فرنسى اليوم الخ

ثانيا ـ قوة العقيدة الأسلامية . . . لاحاجة بنا إلى تكرار ماأبداه من المعجزات التى نجلت لنا من جراء فعل هذه العقيدة بالنفوس . . . .

لو كان الاسلام الحقيقى معروفا فى أوروبا لكان من المحتمل أن ينال أكثر من أى دين آخر من العطف والتأييد من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى فانه والحق يقال يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم فهو يساعده التناحية كما يذهب إليه المعتزلة . وباشتماله على روح التصوف كما يذهب إليه أهل الصوفية يهدى علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة فى آرائهم وأفكارهم كما أنه هدى وتعزية لزنوج السودان الذى ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية ويرقى بروح ذلك التاجر الانكليزى رجل العمل بمتجر الوقت من ذهب كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين . ويسمو بنفس الشرقى المفكر ذي التأملات والخيالات كما يسمو بنفس الغربى الشغوف بالشعر . بل هو يسحر لب الطبيب العصرى بما فرده من الوضوء المتكرر كل يوم وبما فى الصلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معا . وفى وسع حر التفكر ـ وهو ليس ملحد حتما ـ أن يعتبر أن الوحى الاسلامى عمل من أعمال تلك القوة الخفية التى نسميها (الالهام) : وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لايحتوى على أسرار خفية لايسيغها العقل .

ثالثا ـ إن عداوة أوروبا للاسلام . . . . . توجد اليوم جماعة من المستشرقين لاغرض لهم من دراسة اللغة العربية والبحث فى الدين الاسلامى سوى تشويهما والطعن فيهما . .

لقد اعترف موسيو بوتيه أحد العلماء المنصفين أن القرآن ربما كان الكتاب الوحيد الذي قرر

كتاب الحج إلى بيت الله الحرام تأليف الحاج ناصر الدين دبنه والحاج سليمان بن ابراهيم واهيم نجلة شباط المطبوع السنة الثانية من ٩٨٤٢٩

نظرية التوحيد ولذلك أخذ بعض المستشرقين على عاتقهم محاربة هذه الميزة التي امتاز بها الاسلام .

ترى البصير القطن أن الاسلام فى مبادئه ووسائله يدعو الى الوحدة والارتباط بين الأفراد بعضها ببعض وبين الشعوب المسلمة من ناحية وغير المسلمة من ناحية أخرى مادامت قائمة بحق الجوار ومحافظة على العهود .

والاسلام فى أصوله ومراميه دين سلم وخير ورحمة للعالم كافة انظر الى قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم[1]

وقد دعا الله تعالى المسلمين إلى السلام فى غير ما آية حتى يتفرغوا لشئونهم ويعملوا مافيه صالح دنياهم وآخرتهم فقال تعالى :

(يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة)[2] (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات[3])

والسلام الذي دعا إليه القرآن الكريم يجب أن يقوم على العزة والمنعة لا على الاستسلام والعبودية وضياع الحقوق . والتفريط فى الواجبات . ولذلك دعا الله تعالى إلى الجهاد فى سبيل الدفاع عن الحق والنفس والمال والعرض وإعلاء كلمة الدين حتى يقف المعتدي عند حده ويعود إلى رشده وحذر الله تعالى من العدوان وتخطي الحدود حتى لاتكون فتنة وحتى يعود السلام إلى نصابه فقال تعالى :

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)

---

(١) سورة فصلت (٢) سورة البقرة (٣) سورة البقرة

قال فلستر روبرت ل . يحضر في مقال تحت عنوان الأسلام في سبيل الوحدة :-

والمادية الغربية والتعليم والآراء والأفكار الاجتماعية أيضا أمرها العميق على المعاهد الأسلامية :

وهناك أخيرا كثرة المذاهب وتعددها وهي تقسم الأسلام حتى في المسائل الدينية البحتة في كل النقط ماعدا أركان الدين الخمسة وهذه العناصر الخمسة الجامعة هي شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

والأسلام في صورته الأولية كالمسيحية في صورتها الأولى . فكرة شاسعة عن مهمته في الدنيا فلا القرآن ولا الأحاديث النبوية ولا أقوال الصحابة تفرق بين الأجناس أو الطبقات أو الألوان .

وعلى أساس هذه العالمية قامت نظرية وحدة سياسية . وهي وحدة وإن لم تتحقق عمليا أبدا إلا أن المتمسكين بالدين يقوا على مر القرون مؤمنين بأن تحقيقها رهن بوجود ظروف أصلح ووجود خلفاء أقوى

وإن الجامعة الاسلامية بين جميع الأمم الاسلامية والرابطة الانسانية بين المسلمين وغير المسلمين هي رهن اعتصام المسلمين بالتمسك بأوامر دينهم والمحافظة عليها ومعاملة الأمم الأخرى لهم معاملة النظير للنظير وأن يسود حسن التفاهم والوئام بين الجميع ؟

الدكتور محمد احمد الغمراوي

الحيـــاة

ماأراها سوى احتيال وغدر
وخداع في أهلها وتفاني
والليب الليب فيها مُداجٍ
يتصابى أو قانع في رواق

ابراهيم علي أبو الخشب